مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 02 – جويلية 2022 الصفحات: 10- 19

البلاغة من منظور إنساني

Rhetoric from Humanistic Perspectives

د. محمد الولي*
جامعة سيدي محمّد بن عبد الله، فاس (المغـرب)
eloualimoh2000@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/24 تاريخ القبول: 2022/07/30 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص البحث:

لا تنفك نشأة الخطابة، أو البلاغة، عن نشأة الكلام بصفة مجملة. وإذا جاز الفصل بينهما فإننا نعتبرهما هنا من مقومات المجتمعات الإنسانية البديلة من القطيع المتوحش. لقد ارتبطت الخطابة في نشأتها بالوضع جانباً لوسائل العنف وتعويضها بالوسائل السلمية الخطابية. منذ البداية تعلن الخطابة، في فجر نشأتها، عن سحنتها الإنسانية السلمية؛ وإذا كنا اليوم ننادي بضرورة توطين الخطابة في الدوائر الاجتماعية والإنسانية فالأمر لا يستند إلى شعار واستراتيجية جديدين، بل إن القصد هو العودة بالخطابة إلى موطنها الأصلي حيث كانت الأغراض الإنسانية أو المدنية هي الداعي إلى ولادتها ونشأتها، كما كانت كذلك مؤمِّنة استمرار حياة التجمعات البشرية وتأمين رفاهيتها.

الكلمات المفتاحية: الخطابة، البلاغة، المدنية، المجتمع، الإنسان.

Abstract:

The genesis of oratory, or rhetoric, is essentially intimate to the genesis of speech. Once separated, they are considered as one of the components of alternative human societies rather than the masses. Rhetoric, in its inception kept away the means of violence and replaced them with the pacific means of rhetoric. In the beginning, rhetoric states its humanistic quietude. Nowadays, we call upon the necessity of settling rhetoric in social and humanitarian environments, far from a renewal of slogans and strategies. However, the purpose is to take back rhetoric to its original homeland, where human or civic ends were the reason for its initiation and rise, as well as to ensure the continuity of human life and its well-being.

Keywords: Oratory, rhetoric, civic, society, human.

* المؤلّف المراسل

لا تنفك نشأة الخطابة، أو البلاغة، عن نشأة الكلام بصفة مجملة. وإذا جاز الفصل بينهما فإننا نعتبرهما هنا من مقومات المجتمعات الإنسانية البديلة من القطيع المتوحش. لقد ارتبطت الخطابة في نشأتها بالوضع جانباً لوسائل العنف وتعويضها بالوسائل السلمية الخطابية. منذ البداية تعلن الخطابة، في فجر نشأتها، عن سحنتها الإنسانية السلمية؛ وإذا كنا اليوم ننادي بضرورة توطين الخطابة في الدوائر الاجتماعية والإنسانية فالأمر لا يستند إلى شعار واستراتيجية جديدين، بل إن القصد هو العودة بالخطابة إلى موطنها الأصلي حيث كانت الأغراض الإنسانية أو المدنية هي الداعي إلى ولادتها ونشأتها، كما كانت كذلك مؤمِّنة استمرار حياة التجمعات البشرية وتأمين رفاهيتها.

إن هذا لا ينفي تلك الاستخدامات المؤذية في القديم وفي العصور الحديثة. إن احتجاجات أفلاطون في جورجياس، ضد الخطابة كانت تقصد إلى هذا الجنس من الاستخدام المؤذي لها، ونفسه أفلاطون بادر في محاورة فيدر إلى تصحيح موقفه بالدفاع عن خطابة فلسفية ومدنية وأخلاقية. والحقيقة أن هذا الاستخدامات الإنسانية للخطابة هي التي احتضنها أرسطو في الخطابة وفي الطوبيقا ونهض بها. وكذلك فعل شِيشْرونْ الذي يقول:

"إن تفوقنا الأكبر على الحيوانات، يكمن في قدرتنا على الحوار مع أندادنا، وفي الإفصاح عن أفكارنا بالكلمات. فمن منا لا يبدي الإعجاب حقاً بهذا الامتياز؟ من منا لا يعتقد أنه ينبغي أن يبذل قصارى جهده لأجل أن يتفوق على غيره من الآدميين أنفسهم، في ذلك الأمر الذي تفوق فيه الإنسان على الحيوان. وبعد هذا، فلنعد إلى النقطة المركزية. ما القوة الأخرى، غير هذه، تمكنت من الجمع في نفس المكان الآدميين المبعثرين، وإخراجهم من حياة الخشونة والتوحش، لأجل الوصول بهم إلى مرتبتنا الحالية من الحضارة وبناء المجتمعات [أو الحواضر] وتسييد القانون والمحاكم والحقوق.[1]

ويذهب كِينتِيلْيَانْ إلى أن "الخطابة تنتفي مع الظلم". وإلى أن "الخطيب هو رجل الخير" "وأن المرء لا يمكن أن يتكلم إذا لم يكن إنسانَ خير".[2]

الخطابة، أو البلاغة، هي في التصور الشِّيشْرونِي فن مدني. إنها هي صاحبة الفضل في إخراج الآدميين المبعثرين في الغابات والفلوات وجمعهم في تجمعات مدنية منظمة. الخطابة هي إذن في الأصل وفي المنشأ التي حققت إنسانية الإنسان ومدنيته التي جعلت الناس يعيشون متآزرين في مجتمع منظم، ومحكوم بقانون. ربما كان هذا الرأي الشِّيشْرُونِي تصحيحاً استباقياً لرأي ماركس الذي يرى أن الخطابة نشأت تحت ضغط حاجة دعوة الإنسان لأخيه الإنسان إلى العمل، وربما تصحيحاً لرأي فرويد الذي يري أن تلك الدعوة كانت دعوة شهوية جنسية. حيث يقول:

"إن الأصوات الأولى التي تلفظ بها الإنسان كانت أداة تواصل وطريقة لدعوة الشريك الجنسي، ولاحقاً استخدمت الكلمة لمصاحبة العمل. ذلك العمل اتصف بطابع جماعي، وكان ينجز مصحوباً بأصوات متكررة إيقاعياً، كانت غايتها خلع أهمية جنسية على العمل".[3]

أعتقد أن الدعوة الشِّيشْرونِيَّة والأرسطية تنسخان الدعوة الماركسية والفرويدية وتمثل الصيغة الأقرب إلى المعقولية، بل ربما اعتبرت أشمل وتنطوي على الدعوتين الجنسية والعملية.

والواقع أن شيشرون يعيد صياغة عبارة أرسطو القائلة:

"من المحال أن يقال: إن الإنسان ينبغي له أن يخجل من عجزه عن الدفاع عن نفسه بأطرافه [أي بقوته الجسدية]، لا من عجزه عن الدفاع عن نفسه بالكلام العقلي، إذ استعمال الكلام العقلي أكثر تمييزاً للإنسان من استعمال أطرافه".[4]

تتفق الأطروحتان الشِّيشْرونِيَّة والأرسْطيَّة في أمر أساسي وهو اعتبار التوحش عديم الكفاءة الخطابية، بل ربما الكلامية. التوحش يحل مشاكل التجمعات بالعنف، لا الحوار؛ وعلى العكس من ذلك فإن التجمعات المدنية والإنسانية يتم بناؤها على أساس الحوار أي الكفاءة الخطابية. هو هذا إذن أساس وأركان التجمع الآدمي أو الإنساني. لقد ترافق ظهور الخطابة مع ظهور التجمعات المدنية.

إلا أن أرسطو الذي نوه بالخطابة أو البلاغة في تدبير حياة الإنسان لم تشغله الخطابة التي يستعين بها في معالجة الأمور الصغيرة في حياتنا اليومية. إن الخطبة التي يلقيها خطيب ما في المرافعة ضد كاتب انتحل مقالة زميل له ونسبها لنفسه قد لا تشغل بال أرسطو نهائياً، لأن الأمر لا يهم إلا فرداً واحداً. إلا أن مسألة من قبيل هل أقبل استعمال اللقاح، أم لا، ضد كُورُونَا، قد يعتبره أرسطو موضوع خطابة، لأن الأمر مرتبط بصحة كل المواطنين، لأن عدم التلقيح قد يؤذي المواطنين بمجملهم.

المشاكل التي شغلت أرسطو هي مشاكل الشعب كله أو الوطن، ككل. لهذا فإن أرسطو في خطابته لا يعتبر من الخطابة إلا الأجناس التي تُعنى بأمور البلد بأكمله. ففي الخطابة الاستشارية أو التداولية يتبادل الناس الخطب في أمر يتعلق بمصير كل الحاضرة أي بمصير كل سكانها. واهتم إلى جانب هذا بالخطابة القضائية التي تقاضي أولئك الذين أخلُّوا بالأمانة في تدبير شؤون الحاضرة كما الخطابة الاحتفالية تتخذ موضوعها المناسبات الوطنية الكبرى. ومع هذا فقد اعتبر الخطابة الاستشارية أو التداولية أرقى أجناس الخطابة، إنها مدنية بامتياز لأن هدفها هو إسعاد الحاضرة بأكملها. وهو أسمى هدف وليس هناك هدف أسمى من إسعاد كل سكان الحاضرة. إنها خطابة مدنية بامتياز. يقول أرسطو:

"ومن هنا كان منهج الخطابة المشاورية [أو السياسية] والخطابة المشاجرية [أو القضائية] واحداً، وعلى الرغم من أن ممارسة الأول أشرف وأخلق بالرجل السياسي من ممارسة الثاني الذي هو محصور في المعاملات بين الأفراد المواطنين".[5]

الخطابة في نشأتها الأولى كانت في كليتها، وعلى وجه الإجمال، مدنية. إن لها غاية سياسية وأخلاقية سامية، سمواً لا يرقى إليه أي سمو آخر. وإذا كانت تسمية الخطابة المدنية قد التصقت بالخطابة الاستشارية وحدها بدون الجنسين الآخرين: القضائي والمدني، فإن خطابة إلى أليكْساندْرْ تعتبر هذه الأجناس الثلاثة كلَّها مدنية، أي سياسية.

لا شك أننا نتذكر كيف أن أرسطو يعتبر السياسة هي أرفع العلوم. لأنها تسعى إلى أرفع غاية وهي السعادة المدنية لكل البلد، للبلد بأجمعه وليس سعادة هذا أو ذاك. هذه الطبقة أو تلك، هذه الفئة أو تلك، هذا الإقليم أو ذاك هذا الحزب أو ذاك، هؤلاء الأشراف أو أولئك. ولكن ما علاقة السياسة بالخطابة. غاية الخطابة ليست نهائية. غايتها هي إقناع الناس بهذا البرنامج أو ذاك. هذا الإقناع ليس غاية نهائية، إنه غاية تصب في الغاية الأرفع والنهائية التي لا غاية بعدها التي هي سعادة الحاضرة. سعادة الحاضرة غاية علم السياسة. غاية الخطابة جدول يصب في الغاية الأرفع التي هي غاية السياسة.

قد نندهش إذا عرفنا أن أرسطو يقارن هذه الخطابة بالجيش بل بجهاز الدفاع الوطني. إن غاية الجيش أو الدفاع الوطني ليست نهائية، الدفاع عن الوطن أو حماية الوطن من التهديدات الخارجية ليس غاية نهائية، إن الغاية النهائية مسؤولية علم السياسة. لأن غاية السياسة هي إسعاد الحاضرة بأكملها. وسعادة الحاضرة بأكملها هي غاية نهائية ولا غاية بعدها. في حين أن غاية الجيش والخطابة تحتلان مرتبة أدنى وهما حماية الحدود الوطنية بالنسبة للجيش وإحداث الإقناع بالنسبة إلى الخطابة. وهما معا غايتان غير نهائيتين. إن هناك مسافة تفصلهما عن السعادة لكل المواطنين. يقول أرسطو:

"ينبغي أن نحدد، ولو بشكل إجمالي على الأقل، ما هو الخير الأسمى وان نُعيّن ما هو العلم الخاص أو الكفاءات التي ترتبط به. قد يبدو أنه ينبغي أن يكون هو العلم الأسمى بالدرجة الاولى. إن هذا العلم هو، حسب ما يظهر، السياسة. وفي الحقيقة فإنها هي التي تصنِّف في درجات العلوم الضرورية للحواضر، والتي ينبغي أن يتعلمها كل واحد، كما تحدد القدر الذي ينبغي للمواطن أن يمتلكه من ذلك. إننا نعرف فوق ذلك أن الملكات الأجدر بالتقدير هي تابعة لها، مثل الإستراتيجية العسكرية والاقتصاد والخطابة. وبما أن السياسة تستعين بالعلوم الأخرى وتنصح فوق ذلك بما ينبغي فعله وما ينبغي تفاديه، فإن غايتها ينبغي أن تشمل غايات العلوم الأخرى، بطريقة تشكل معها خير الأنسان. حتى وإن كان الخير نفسه بالنسبة إلى الفرد وبالنسبة إلى الحاضرة فمن البديهي أن اكتساب خير الحاضرة وتأمينه أعظم وأصوب، لأن كسب خير شخص واحد هو شيء مرغوب، إلا أنه أجمل وأقدس امتلاكه للشعب بأكمله وللحواضر كلها".[6]

بطبيعة الحال يَنظَمُّ علمُ الاقتصاد إلى الإستراتيجية العسكرية والخطابة اللتين تنجزان غايات وسيطة، لا نهائية، إذ الغاية النهائية هي غاية السياسة؛ لذا كانت أشرف العلوم وغايتها أقدس الغايات؛ إن غاية الاقتصاد ليست نهائية، بل وسيطة، إنها اكتساب الثروة أو تنميتها، التي يتناولها علم السياسة فيصرفها في الأغراض المدنية أو الحاضرة بأكملها، أي يصرفها في ما يسهم في إسعاد الحاضرة بأكملها. ما يهمني هنا هو إنزال الخطابة (التي أدانها أفلاطون)، إلى جانب الاقتصاد والأستراتيجية العسكرية. لقد تمت هنا على يد أرسطو تبرئة الخطابة من التهم التي وصمها بها أفلاطون حينما أسند إليها، إلى جانب الاستراتيجية العسكرية والاقتصاد، دوراً فعالا في اتجاه إسعاد الحاضرة. إن استقطاب السياسة لعمل هذه العلوم واتخاذها دعاماتها الثلاثة لاجتراح الغاية النهائية التي تخصها، أي إسعاد الحاضرة ، يعد تشريفاً لهذه العلوم الثلاثة المساعدة للسياسة. أعتقد هذا أعظم تشريف للخطابة. فأن تحتل مكانة تناظر الإستراتيجية العسكرية والاقتصاد التي تصب كلها في بحر غاية العلم الأشرف التي هي أسمى غاية؛ فهذا امتياز عظيم لها. إن الغاية الأسمى الغاية النهائية من مسؤولية علم السياسة وحده، أما الخطابة أو البلاغة والجيش فهي الأنهار التي تصب في بحر علم السياسة الساعية إلى إسعاد الحاضرة بأكملها. إن هذه الاستعمالات المحاذية أو النائية عن الأغراض الإنسانية لا تدعى خطابة. ولو اطلع أرسطو على تلك الأجناس الخطابية التي تسخر لأغراض تجارية أو إشهارية أو لأغراض دعائية أو عنصرية تحط من قيمة تجمعات آدمية لاستهجن تلك الممارسات، الملطخة للخطابة والإنسانية على السواء. لقد

تحولت الخطابة في عصرنا من خدمة الإنسانية إلى الإساءة إليها.

وإذا كان أرسطو يعتبر جنس الخطابة الاستشارية هو وحده الجنس السياسي لأنه يُعنَى بالأمور السياسية التي تهم الحاضرة، فإنه في خطابة إلى أليكساندر، الذي ينسب إليه، يعتبر الأجناس الخطابية أو البلاغية كلها سياسية.

"ينبغي أن نميز ثلاثة أجناس من الخطب السياسية: الاستشاري في التجمعات الشعبية العمومية والاحتفالي والقضائي".[7]

هكذا ولدت ونشأت وازدهرت الخطابة مدنيةً أو سياسيةً بل إنسانيةً بربطها بالسعادة الأكمل للحاضرة. كانت مدنية حين كان النظام السياسي الذي احتضنها ديموقراطياً. ومع سقوط الديموقراطية دفنت معها ابنتها الخطابة. سقطت الديموقراطية وسقطت معها حرية التداول في أمور الحاضرة وسقط معها القضاء المستقل، ولم ينج من الكارثة إلا جنس الخطابة الاحتفالية الذي هيمن في كل العصور الرومانية. تلك الخطابة التي لا تعرض النزاعات الخلافية بل تعرض فقط الرأي الواحد الذي يمجد الوضع القائم والسلطة القائمة التي استأثرت بالقرارات السياسية والتشريعية وحدها كما استأثرت بالأحكام القضائية. تلك كانت الحالة في العصر اللاتيني. وعلى الرغم من أن شيشرون طالما نوه بالجانب المحسناتي في الخطابة فإنه كثيراً ما عبر عن حذره من تبخيس الجانب الإقناعي للخطابة:

"لقد انتهيت من وصف مجمل ومقتضب للكيفية التي ينبغي أن يكون عليها الخطيب في النقطتين الأوليين للفن الخطابي [أي الإيجاد والترتيب]. إلا أن هاتين النقطتين كما أسلفت القول، على الرغم من ثقلهما واهميتهما، لا تتطلبان صناعة ولا جهداً"[8]. وفي الخطيب الكامل يعبر بحذر أشد بقوله: "ذلكما هما بشكل إجمالي ومقتضب الجزآن الأولان للفن الخطاب. إلا أنني أكرر، على الرغم من ثقلهما وأهميتهما، فإنهما يتطلبان قدرا أقل من الصناعة والعمل" .[9]

ولقد أجهز على الخطابة أو البلاغة، وضيق عليها الخناق، الاتجاهان الفلسفيان الذائعان العقلانية والتجريبية اللذان لا يسلمان بأية معرفة لا تقوم على اليقين الرياضي أو التجريبي.

وفي العصور الحديثة، بل وفي المغرب تحملت الخطابة التنكيل الشديد. فلنشر إلى أمرين فقط. فمع اتساع رقعة التواصل واستحداث أدوات تقنية كاسحة لفضاءات التواصل السياسي وغير السياسي استوى التلفزيزن على عرش التواصل والخطابة. لم يعد التلفزيون ينتظر احتشاد الناس لكي يلقي خطبه، بل إنه يتعقب الناس في كل مكان. ويلقي الخطب التي شاء. وخلافاً لما كان يحدث في الخطابة القديمة حيث كان يتناوب على المنصة كل الأطراف المتنازعة أو المشاركة في نقاش ما، أصبح التلفزيون المتحدث الوحيد، أمام مستمع معطَّل. يتلقى الخطاب فقط ولا يرسله. وخلافاً للخطابة القديمة التي كانت وليدة الديموقراطية، وحيث النقاش الحر يمثل مكونها الأساسي، فإن التلفزيون هو خطاب في اتجاه أحادي هناك مرسل ومتلق. المرسل هو مرسل دوماً والمتلقي هو متلق دوماً. لا سبيل إلى الاعتراض هنا. إنه ديكتاتور حقيقي. و"سارق للوقت"، حسب عبارة إيميلْ كُونْدْرِي[10] وإذا أضفنا إلى هذا أن التلفزيون العمومي يخص جزءاً كبيرا من الزمن للمعروضات التي يشهرها أمام المشاهدين الذي يدعوهم إلى استهلاك بضائع هي في الكثير مضرة أو إنها تعتمد سياسة تبديد وقت المستمع، ففي النهاية

ما الجدوى من إشهار مواد تتمتع بنفس الفعالية. وربما كان المنتوج الأجود لا يعرض في الإشهار. إن التلفزيون يقوض أخلاق الخطابة القديمة. يقول إِمِيلْ كُونْدْرِي: "إن التلفزيون الحديث، وخاصة ألامريكي، له وظيفة واحدة: إنها وظيفة البيع. إن جوهره هو كونه أداة بيع. إن القيم التي تخصه، هي قيم السوق؛ وبنيته ومحتوياته هي انعكاس لهذه الوظيفة"[11]. هي هذه الضربة القاصمة للخطابة التقليدية. صحيح أنها ما تزال تعيش؛ ولكن أية حياة، مع التلفزيون الذي تحوز بكلية المستمعين. بطبيعة الحال فإن العمل التخريبي للتلفزيون يتخطى هذا الإطار. يقول إ. كُونْدْرِي: "لا يمكن لأيه ديمُوقراطية أن تنجو من الموت إذا لم تضع حداً لهيمنة التلفزيون المطلقة" .[12]

الجانب الثاني في هذا التنقيص من قيمة الخطابة، موقعها في مقرراتنا المدرسية. بل التنقيص من كل مواد الإنسانيات. الفلسفة والتاريخ والنحو الأدب والمسرح والشعر والتشكيل والموسيقى بل والخطابة والرياضة الخ. ليست هذه المواد مبخسة فقط، بل إن حصصها في التخصصات العلمية هي بمثابة جولات الفرجة والسخرية. إنها ضربة في الصميم للإحساس المدني الذي ربته الخطابة القديمة.

هناك الآن في المغرب نزعة تقوم على ركنين وهما التشديد على المردودية الاقتصادية، من جهة والمراهنة على التخصصات التقنية باعتبارها هي المنتجة للوفرة الاقتصادية والمالية. إن هذا قد يحصل في المغرب وغير المغرب. إلا أننا نلاحظ أنه مع تحقق هذه الوفرة والتقنية الباهرة نصاب بالدهشة ونحن نرى أن ذلك يرافقه تفاقم أحوال الفقراء وتفاقم الأمية وتفاقم الانحطاط الأخلاقي وتفاقم التشدد الديني والتكنوقراطي الاستبدادي. ذلك أثر من آثار تهميش الخطابة وازدراء قيم الحوار الجدلي القائم على اعتبار تعدد الرؤى وزوايا النظر بل وتعدد الاستنتاجات التي تتيح فرص الاتفاقات المعتمدة على التفاوض الخطابي والتماس الحلول المتفاوض حولها بين الأنداد المتحاورين. بل إن الصفعة الكبرى للخطابة هي إدارة الظهر لسعادة الشعب بأكمله التي كانت بؤرة اهتمام الخطابة الأرسطية. لقد عوض تلك السعادة التقدم التقني والوفرة الاقتصادية التي لا ترافق بتحسين أوضاع الساكنة. لقد كانت الحقيقة النظرية أو العملية هي الشغل الشاغل لأرسطو. كانت سعادة الناس، أي الشعب هي المشكل الذي يؤرقه. لم تكن سعادة الشعب موضوعاً خلافياً بين طبقات الشعب، بل الأدوات والوسائل هي ما كان يمثل موضوع حوار بين فئات كل الشعب، أو المواطنين. أما اليوم ومع هيمنة الرأسمالية المستبدة بالسلطة وبوسائل التواصل الاجتماعي كالصحافة ودور النشر والأنترنيت، وضع الربح والكسب المادي على رأس أولويات هذه الطبقة، فقد سخرت كل وسائل الاتصال لخدمة الغرض "المقدس" ألا وهو الربح، وتسخير الشعب وتحفيزه على الاستهلاك. والواقع أن هذا لم يكن تصور القدماء للبلاغة، أقصد أفلاطون وأرسطو وشيشرُونْ. يقول خطيب روما:

"بما أن كل أمر مناسب يتولد عن أربعة منابع، يرتبط أحدها بالمعرفة (connaissance) والثاني بإحساس التجمع الإنساني (أو العدل) والثالث بسمو النفس، والرابع بالاعتدال؛ لأجل اختيار واجب ما فمن الضروري في الغالب مقارنتها في ما بينها.

أعتقد أن الواجبات التي تشتق من العلاقات الاجتماعية هي الأشد مناسبة من تلك التي تقصد إلى المعرفة؛ نستطيع أن نؤكد هذا الرأي بالمثال التالي، أنه إذا صادف أن عالماً يملك من المال ما يخول له

التفرغ للدراسة والتأمل في شروط مريحة جداً، للأشياء الجديرة بأن تكون معروفة، فإنه سيهجر بهذا الحياة، إذا كانت الخلوة بكيفية تعفيه من العلاقات مع الناس. الأكثر من هذا أن المعرفة الأسمى هي المعرفة التي تُدعى باليونانية سُوفْيَا Sophia (وفي الحقيقة فإن السداد prudence الذي يقابله باليونانية فْرُونِيزِيسْ phronesis نقصد به إلى فضيلة مختلفة عن المعرفة: إن السداد هو علم ما يراد تحققه أو ما يراد تفاديه؛ إن المعرفة التي هي، كما أسلفت القول، الفضيلة الأسمى، هي علم الأشياء الإلهية والإنسانية، الشيء الذي ينطوي على علاقات العشيرة والمجتمع بين الآلهة والناس)؛ فإذا كانت هي أسمى الفضائل، فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة أن الواجب المتعلق بالرابط الاجتماعي هو من أسمى الفضائل؛ يخلص عن ذلك إذن أن الواجب الذي يتعلق بالرابط الاجتماعي هو من أعظم الواجبات، وفي الحقيقة فإن المعرفة وتأمل الطبيعة كأنهما عاطلان أو يكادان، إذا لم يعقبهما الفعل؛ والحال أن قابلية الفعل تقوم قبل كل شيء على السهر على مصالح الناس؛ إنه إذن يرتبط بالتجمع الإنساني الآدمي؛ وإذن فالرابطة الاجتماعة ينبغي أن تكون مفضلة على المعرفة " .[13]

ويمكن أن نوضح هذا بعبارة مختصرة لشيشرون أيضاً، وهي توضح تصوره لمصلحة الناس والمجتمع:

"إذا كان كل واحد منا يستحوذ لنفسه على كل ما يفيد الآخرين، ويسلب كل أحد ما يستطيعه للانتفاع به، فإن المجتمع الإنساني سيؤول بالضرورة إلى الخراب. فلنفضل على ذلك أن نمتلك لأنفسنا قبل غيرنا ما يمكن أن يفيد الحياة، إنني أوافق على ذلك والطبيعة لا ترفضه؛ إن ما لا تستطيع تحمله هو أن نضاعف أملاكنا، وموادنا وثروتنا بتجريد آخرين منها. ليست الطبيعة وحدها، أي حقوق الناس، التي سنَّت بأنه لا يسمح بإلحاق الأذى بالآخرين لإرضاء مصلحة شخصية؛ إن الشرائع التي تنظم كل حاضرة الدولة قد سنت ذلك أيضاً. إن القوانين تسعى في الحقيقة إلى عدم المساس بوحدة المواطنين وهي تعاقب أولئك الذين يخرقونها، وذلك بعقابهم بالموت أو النفي أو السجن أو الذعيرة. والأشد فعالية من ذلك هو العقل الطبيعي، أي القانون الإلهي والإنساني: فمن يريد الخضوع له (وكل من يرغبون في العيش بالانسجام مع الطبيعة سيخضعون له) لن يسمح أبداً باشتهاء ما هو ملك الاخرين والتحوز بما انتزعه من الآخر" .[14]

إن الخطابة القديمة التي لم تعرف استحواذ طبقة لوسائل التواصل كانت تتيح فرص التواصل لكل الناس. ولهذا فقد كانت مراقبةً مراقبةً شديدة بسبب الحضور الجسدي للمتناقشين، ولكن أيضاً بسبب الحقوق المؤمنة والمحمية في الرد. غياب هذه الاعتبارات هي التي جعلت المستمع يتجرع يوميا مئات وربما ألاف الرسائل الإشهارية والدعائية التي تقوم في مجملها على الكذب ولا فرصة متاحة للمستمع للرد ناهيك عن التكذيب أو التفنيد.

هذا الوضع هو الذي ينتقده الباحثون في مجال الإشهار والدعاية السياسية. يقول دافِيدْ كُولُونْ تحت عنوان "ترف الكذب":

"ليست الأفكار الخاطئة مجرد النتاج "الطبيعي"، إذا جاز القول، للفكر، بل إنها مطبوعة بسلطة للإغراء لا مثيل لها: "إن فكرة خاطئة، ولكنها واضحة ودقيقة، ستكون لها دوما قوة أكبر في العالم من فكرة صادقة ومعقدة" [...] وكذلك أبرز غوسْتَافْ لُوبونْ السلطة الجذابة للأكاذيب على الحشود. "لم يكن أبداً للحشود إحساس بعطش الحقائق . فأمام

اليقينات التي تضايقها، تدير ظهرها، مفضلة تأليه الخطأ إذا كان الخطأ يغريها. إن الذي يعرف إثارة أوهامها يصبح سيدها بسهولة؛ وإن الذي يحاول تخليصها من أوهامها يكون دائماً ضحيتها".[15]

نعم قد نكون بالانتقال من عهد أرسطو إلى العصور الحديثة مرورا بالعصر اللاتيني، قد انتقلنا من عصر الاحتكام إلى العقل مع أرسطو حيث كان الأهواء مقيدة بقيود العقل وقيود السداد، وحيث فرضت شروط صارمة، بل حدود لانثيال الأهواء والعواطف، إلى عهد تغول الأهواء بمعناه المناهض للعقل. بل إن الأهواء passions قد كانت عند أرسطو عبارة عن ميول عاطفية قارة وهادئة في حياة الإنسان يحكمها العقل. أما في العصر اللاتيني فقد تحولت هذه الأهواء لكي تحتل مرتبة عالية في الحجاج, بل لقد أصبحت تدل على الانفعالات القوية، التي تستثار في خاتمة الخطبة مقابل العواطف اللينة في الافتتاح حيث يطلب الخطيب كسب ثقة الجمهور. صحيح أن الأهواء قد علا شأنها في الخطابة اللاتينية، ولكن رغم ذلك نؤكد أن الأسلوب ربما أصبح متمتعا بنفوذ كبير وأصبح يزاحم الحجج اللوغوسية. بل ربما جاز القول إن الأسلوب قد بدأ يتربع على عرش المقومات الخطابية وأصبح يكتسح فضاءات مترامية، وهذا مظهر من مظاهر أفول العصر اللوغوسي وشروق العصر المحسناتي بل الأسلوبي. ومع العصور الحديثة، وبالتوازي مع هيمنة وطغيان وسائل التواصل المعاصرة، التي استحوذ عليها الرأسمال المتوحش الذي وضع على رأس أولوياته الربح المادي والكسب المالي المتنكر لكل القيم الإنسانية والفضيلة الآدمية. واستغلال كل العلوم ذات الصلة بالإنسان إلى دفع هذا للانخراط في دوامة الاستهلال المحموم والمدمر. مع العصور الحديثة أشاحت بشكل شبه كلي أبرز أجناس الخطاب: الإشهار والدعاية بوجهيهما عن اللوغوس، وتمسكت باستعمال محموم لقيم الباتوس المتنكر لكل قيم العقل.

وهكذا ففي العصور الحديثة تمتعت الخطابة كما في عصورها المزدهرة في أثينا باستعمالين: أحدهما ذو أرومة إنسانية، والآخر ذو مرام مؤذية. ففي القطب الأول نصادف الإشهار وكل أشكال الدعاية السياسية. ففي الأول تكون غاية الخطابة هي الربح المادي بغض النظر عن قيمة البضاعة المعروضة. بل كثيراً ما كانت تلك البضاعة مضرة. وما يقال عن الإشهار يمكن قوله عن الدعاية السياسية والقومية والاستجبارية التي تسوّق الأفكار المروجة لقيم العنصرية والنرجسية الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية. ومقابل هذين الجنسين من الخطابة المنافية لقيم الإنسانية نجد نقيضهما المتمثل في خطاب الجمعيات الإنسانية والفلسفات ذات الأفق الإنساني التي تلتمس للآدميين مصيراً يقوم على احترام كل الشعوب وحقها في حياة آمنة تنال كل حقوقها من العيش الكريم والسلم والمحبة. أريد هنا أن أقف على موقف أحد المناهضين لنوازع الرأسمالية التي تجعل الربح هو مسعاها الأساسي، ولو تم ذلك بالتضحية بمصالح الناس وسعادتهم. يقول جْوَاشيم مَارْكُوس –سْتْيِيْفْ، وهو يتحدث عن أحد أكبر رؤساء جمعيات حماة المستهلكين في أمريكا. إنه المواطن الأمريكي رَالفْ نَادِرْ ذي الأصول اللبنانية:

"إن رالف نادر الممارس لمهنة المحاماة، قد كرس نفسه لكي يكون محامي المصالح العمومية. إنه يأتي على ذكر الوقائع دون مواربة في العبارات الملطفة: ففي الولايات المتحدة نجد 5000 من المرضى يتعرضون للموت في كل سنة بسبب سوء اشتغال

الأجهزة الطبية؛ كما نعثر في نقانق الخنزير على واحدة من كل ثمانية "على أجزاء أطراف من الحشرات والديدان وقاذورات أخرى ..." كما يدين عمليات تاكتيكات تأخير نشر المخترعات المفيدة من وجهة النظر الصحية التي تسمح بتحقيق انجازات ذات مردود اقتصادي، وتأثير الصناعة في الأجهزة العمومية، وتمويلَ الحملات الانتخابية من قبل مجموعات الضغط الصناعية والمالية، وعديداً من الموظفين الذين يستقلون من مناصبهم لأجل الالتحاق بمناصب تؤدي تعويضات عالية في المؤسسات الصناعية الكبرى التي كانت قبل قليل مراقبة من طرفهم" .[16]

لا بد من إبداء ملاحظة هنا، تتعلق بتحول بوصلة الخطابة الإشهارية والدعائية التي تشدد على التحكم والسيطرة على عواطف الناس وأهوائهم وتوجيهها لاعتناق آراء أو دفعها لاقتناء البضاعة المشهَرة. الأساسي عند هذين الفنين هو امتلاك عقول الناس، وإدارة الظهر للحقيقة. ما يسعى إليه النص السابق لِجُواشِيمْ الذي يروي أموراً عن خطابة رالْفْ نَادرْ هو تحويل البوصلة لخطابته، من المستمع والعبث بإرادته وإدارة الظهر للحقيقة والصدق، نحو الحديث عن الأشياء، بل البضائع، التي يصفها بدقة ويظهر عيوبها المؤذية بالصحة. إنها الخطابة التي تستند إلى الأنطولوجية بالأساس لا على الأهواء غير العقلية للمتلقي. إنهما خطابتان: خطابة العقل وخطابة الاستهواء التي تزدري القيم العقلية.

إن هناك اليوم بسبب هيمنة وسائل التواصل التكنولوجية التي تتحكم فيها تحكما تاماً المؤسسات المالية الكبرى طغيانُ الخطابة الهدامة للكرامة الإنسانية وحريتها في الاختيار. وبطبيعة الحال فإن الغاية النهائية هي خدمة رأس المال لا المصالح الحيوية لكل الإنسانية. وما يقال عن الديمقراطية بأنها تتيح فرص الخطابة بشكل حر مجرد أوهام وأضاليل. يقول دَافِيدْ كُولُونْ:

"إن الصحافي في النظام الديمقراطي يمتثل لرأي رأس المال؛ وفي النظام الديكتاتوري يمتثل لرأي السلطة".[17]

وهذا يمثل أسوأ مسارات تطور الخطابة، كما يجعلنا نتذكر بكثير من الحسرة والألم أيام الازدهار الخطابي الديموقراطي حقا في أثينا...

الهوامش والإحالات:

[1] Ciceron, **De l'orateur,** Livre 1, ed. Les Belles Lettres, Paris, 2009. p. 18.

[2] Bertrand Buffon, **La parole persuasive,** ed. puf, 2002, Paris, p. 41.

[3] In. Reuben Osborn, **Marxismo y psicoanálisis**, ed. Peninsula, Barcelona, 1969, p. 86.

[4] أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986. ص. 28.

[5] أرسطو، الخطابة، ص ص. 25-26.

[6] Aristoteles, **Etica nicomáquea**, ed. Gredos, Madrid, 1998, pp. 132-133.

[7] Aristote, **Rhétorique a Alexandre**,(apocryphe), Tome II, ed. Librairie philosophique de Ladrange, Paris, 1870, p. 193.

[8] Ciceron, **El orador**, Alianza editorial, Madrid, 2001, p. 50.

[9] Ciceron, **L'orateur idéal**, ed. Rivages proches- Petite bibliothèque, Paris, 2009, p. 39.

[10] Karl Popper : **La télévision un danger pour la democratie**, ed. 10/18 , Paris, 1994, p. 49 .

[11] Karl Popper : **La télévision un danger pour la democratie**, p. 55.
[12] Karl Popper : **La télévision un danger pour la democratie**, p. 36.
[13] Ciceron, **Comme il doit en être honnêtes hommes…** , ed. Gallimard, (folo sagesses), Paris, 2017, pp. 36-37
Ciceron, **Los deberes**, ed. Gredos, Madrid, 2014, pp. 84-85
[14] Ciceron, **Comme il doit en être honnêtes hommes…** , ed. Gllimard, (folo sagesses), Paris, 2017, pp. 57-58.
[15] David Colon, **Propagande, La manipulation de masse dans le monde contemporain**, éditions flammarion, 2021 ; pp. 286-287.
[16] Joachim Marcus -Steif, « Information et défense des consommateurs », in **Communication** n. 17, **Les mythes de la publicité** 1971, p. 124.
[17] David Colon, **Propagande, La manipulation de masse dans le monde contemporain**, éditions flammarion, 2021, p. 82.